الفصل التاسع
غَزْوَة خَيْبَرَ
المحرم ٧ هـ -مايو / يونيو ٦٢٨ م

المبحث الأول
ملخص الغزو

(خيبر)١واحة كبيرة يسكنها اليهود على مسافة مائة ميل من شمال المدينة جهة

١ تقع مدينة خيبر على بعد ١٧٠ كم شمال المدينة المنورة على منطقة جلها عبارة عن حرة عظيمة الاتساع متوسط ارتفاعها ٨٥٠ مترا عن سطح البحر، وتعتبر خيبر منذ اقدم العصور ولا تزال واحة واسعة خصبة معطاء وذات عيون ومياه غزيرة تصلح تربتها لزراعة الحبوب والفواكه بانواعها وهي من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب وكانت خيبر من أسواق العرب المعروفة في الجاهلية ويعرف باسم " سوق نطاة خيبر " (انظر : موقع وزراة الشئون البلدية والقروية على الإنترنت : بلدية محافظة خيبر)

obeikandi.com

الشام.. وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بعد أن أمن جانب قريش بالصلح الذي تم في الحديبية، قرر تأديب يهود خيبر الذي حزبوا الأحزاب والقبائل على الدولة الإسلامية الناشئة، وجعلوا من واحة خيبر مقرًا لدس الفتن وإيقاع الأذى بالأمة الإسلامية، وأجمع الرسول ﷺ على الخروج إليهم في أواخر المحرم، فخرج إليهم في ألف وستمائة مقاتل، منهم مائتا فارس، واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية، وابتدأت المعارك، يفتح المسلمون منها حصنًا بعد حصن، إلا الحصنين الأخيرين، فقد رغب أهلها في الصلح .. وقد بلغ عدد قتلى اليهود في هذه المعركة، ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين خمسة عشر١ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : تكريم أصحاب المواهب من الجنود :

قال سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ : يَا عَامِرُ أَلَا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ ؟

وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا

وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-"مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ ".

---

١ انظر تفاصيل هذه الغزوة في : الواقدي: ٣٨٩، وابن هشام ٣/ ٣٤٢، والطبري ٣/ ٩١، والبلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١٦٩، وابن سيد الناس ٢/ ١٣٠، وابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٣٢٤، والمقريزي ٣٠٩، ومصطفى السباعي ٧٠

obeikandl.com

قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ.

قَالَ: "يَرْحَمُهُ اللهُ" ..

قَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللهِ! لَوْلَا أَمْتَعْتَنَا بِه١!

إن الملح الذي نذكره هنا هو مدى تقدير الجيش الإسلامي لأصحاب المواهب من الجنود، فالقائد والجنود على حد سواء في بحث دائم عن أصحاب الفنون بين الصفوف، كالشعراء والمنشدين .. إن تكريم هذا الصنف من الجنود يعود دومًا بالإيجاب على الحالة النفسية والمعنوية لجند الله .. إن هؤلاء الموهوبين يلهبون مشاعر الحماسة في نفوس الجنود، ويدفعون – بفنونهم – الرجال إلى الصمود والثبات أمام جحافل الباطل ..

المطلب الثاني : الدعاء قبل الإغارة !

لَمَّا دَنَا النَّبِيّ ﷺ من خيبر وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا قَالَ :

" قِفُوا" !! فَوَقَفَ الْجَيْشُ.

ثم توجه القائد العام والرحمة المهداة إلى ربه بهذا الدعاء الكريم قائلًا ومعلمًا :

" اللّهُمّ رَبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ .. وَرَبّ الْأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ .. وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ .. فَإِنّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا .. أَقْدِمُوا بِسْمِ اللهِ"٢.

إنها القيادة الخليقة بالنصر، تلك القيادة القريبة من ربها المتذللة إليه .. إن رسول الله ﷺ بهذا الدعاء يرسل إلى قلوب ووجدان جنوده رسالة مفادها : أنهم مهما امتلكوا من قوة وبلغوا من سطوة فهم في حقيقة الأمر أذلاء إلا الله فلا يغترون ولا يعلوهم الكبر..

وكيف يعتريهم الكبر أو يقتحم قلوبهم الغرور وهم يدعون " رَبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ .. وَرَبّ الْأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ .. وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ .." .. إن مثل هذا الدعاء من شأنه أن يبث قيم الرحمة والأخلاق والتواضع في نفوس جند الله .. وأمثال هؤلاء الذين نصروا الله في نفوسهم وفي قلوبهم لهم أجدر الناس بنصر الله ، الذي قال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ " [محمد: ٧].

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ .

وهم –مع ما آتاهم الله من قوة – يتنزلون المدد من الله وحده، فيسألونه "خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا "، ويلوذون بجنابه ويستعيذون بكنفه " مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا " ..

كما لا يستفتحون القتال باسم أحد من المخاليق أو باسم شعارات إلحادية أو علمانية أو شركية فهم لا يقاتلون من أجل رأسمالية ولا في سبيل اشتراكية .. إنما يقاتلون في سبيل الله، وعلى منهج الله .. لذلك كانت أشارة البداية من القائد العام :

" .. أَقْدِمُوا بِسْمِ اللهِّ " .

المطلب الثالث :أخلاقيات الإغارة على العدو :

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ:

أَنَّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ أَتَى خَيْبَرَ لَيلاً وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : مُحَمَّدٌ وَاللهِّ ! مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ١ !

ثُمّ رَجَعُوا هَارِبِينَ إِلَى حُصُونِهِمْ٢

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "[اللهُّ أَكْبَرُ]٣خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ "٤ .

وفي مشهد الإغارة .. سن رسولنا العظيمﷺ تلك السنة الكريمة التي حدث بها أنس بقوله :"كَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ" .. وذلك حتى لا يفزّع الأطفال والنساء والشيوخ، أو يهيج الدواب.. إن هذه السنة الكريمة لم تكن من قبل ولا من بعد إلا في حروب – محمد ﷺ – وأتباعه ..

وفي قوله ﷺ لما فرت يهود : " خَرِبَتْ خَيْبَرُ " .. درس يفيد أن الجبناء الفرار دائمًا ما يجلبون العار والخراب على بلادهم وذويهم ..

---

١ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر(٣٨٧٦)

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣

٣ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧)

٤ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦)

obeikandl.com

المطلب الرابع: تحريم الحمر الأهلية :

قال سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فَأَتَيْنَا خَيْبَرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"مَا هَذِهِ النِّيرَانُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ ؟ ".

قَالُوا : عَلَى لَحْمٍ .

قَالَ : " عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟ " .

قَالُوا: لَحْمِ حُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ .١

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا" .

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْ نُهَرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا.

قَالَ : "أَوْ ذَاكَ"٢ .

ونادى المنادي :

"إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ".

إن نزول حكم تحريم الحمر الأهلية في ثنايا معارك خيبر؛ ليدلل على امتزاج الأحكام والنصوص الشرعية بالمعارك وجولات الصراع في التاريخ الإسلامي .. الأمر الذي يؤكد على تعهد الشرع الإسلامي السمح بمعالجة أية مخالفة يقع فيها الجيش الإسلامي، سواءً ببيان الحكم الشرعي أو باستخلاص الدروس والعبر كما حال سورة آل عمران في تعليقاته التربوية على غزوة أحد..

إن امتثال الجنود لأوامر ونواهي الشرع في فعل الحلال واجتناب الحراب أثناء المعارك لهو من دلائل النصر ومن أمارات التمكين ومن صفات المصلحين ..

المطلب الخامس : الذب عن أعراض الشهداء:

قال سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعُ

---

١ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧)

٢ صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

obeikandl.com

ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ ، فَمَاتَ مِنْهُ .

قَالَ : فَلَمَّا قَفَلُوا . قَالَ : سَلَمَةُ رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي. قَالَ : "مَا لَكَ؟" .

قُلْتُ لَهُ : " فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ "

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ " ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، " إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ"١.

إن الدرس الأخلاقي البارز في هذا المشهد يكمن في مسئولية القيادة الإسلامية في الدفاع عن أعراض الشهداء ودحض الشبهات التي أثارها المتشككون حولهم .. ليبقى الشهيد هوالأنموذج الأعظم والمثال الأكبر في التضحية والبذل والفداء .

المطلب السادس : تحذير الجنود من الانتحار:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺالْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً، إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ..

فَقِيلَ : مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

"أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " !

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ.

قَالَ : فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ.

قَالَ : فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: " أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ". قَالَ:" وَمَا ذَاكَ ؟" .

قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥)

وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ - :

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"١.

وقال : "قُمْ يَا فُلَانُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"٢.

إن إقدام بعض الجنود على الانتحار في ساح القتال بسبب الجراحات أو نحو ذلك يسبب انتكاسة نفسية وانهزام وجداني للجيش ، ولما في ذلك من تعدي على بنيان الله الذي أودعه أمانة في عنق الإنسان المكلف .. لذا حرمة الشارع الحكيم الانتحار عامة وشدد على تحريمه في مواطن القتال لما في ذلك من اثر سلبي على النفوس .. اللهم إلا العمليات الاستشهادية التي تحدث نكاية في العدو وقد أجازها جمهور العلماء في القديم والحديث .

المطلب السابع : التحفيز على الأعمال البطولية :

عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْه- تَخَلَّفَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا ، فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ!!

فَلَحِقَ بِهِ، فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ..

قَالَ: " لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ٣ يُفْتَحُ عَلَيْهِ "٤ .

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.

فَقَالَ: " أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ" .

فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ !

---

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨١)، (٣٨٨٥)

٢ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٢)

٣ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)، عن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

٤ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٧)

قَالَ : "فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ"

فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ..

فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا.

فَقَالَ : "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"١ .

فَخَرَجَ مَرْحَبٌ – قاتل عامر بن الأكوع – وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي مَرْحَبُ

شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيّ وَهُوَ يَقُولُ أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَضَرَبَ مَرْحَبًا فَفَلَقَ هَامَتَهُ وَكَانَ الْفَتْحُ . وَلَمَّا دَنَا عَلِيّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ حُصُونِهِمْ اطَّلَعَ يَهُودِيّ مِنْ رَأْسِ الْحِصْنِ ، فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

فَقَالَ الْيَهُودِيّ : عَلَوْتُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى .

الْيَهُودِيّ مِنْ حِصْنِ خَيْبَرَ قَدْ جَمَعَ سِلَاحَهُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ مَنْ يُبَارِزُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ لِهَذَا ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ : أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا وَاللهِ الْمَوْتُورُ الثَّائِرُ قَتَلُوا أَخِي بِالْأَمْسِ يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَكَانَ قُتِلَ بِخَيْبَرَ فَقَالَ قُمْ إِلَيْهِ اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ فَلَمَّا دَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ فَجَعَلَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَلُوذُ بِهَا مِنْ صَاحِبِهِ كُلَّمَا لَاذَ بِهَا مِنْهُ اقْتَطَعَ صَاحِبُهُ بِسَيْفِهِ مَا دُونَهُ مِنْهَا حَتَّى بَرَزَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ مَا فِيهَا فَنَنٌ ثُمَّ حَمَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ فَضَرَبَهُ فَاتَّقَاهُ بِالدَّرَقَةِ فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا فَعَضَّتْ بِهِ فَأَمْسَكَتْهُ وَضَرَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَتَلَهُ وَكَذَلِكَ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلَّامَةَ ومجمع بْنُ حَارِثَةَ : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ قَتَلَ مَرْحَبًا . قَالَ الْوَاقِدِيّ : وَقِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ

---

١ صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)

ضَرَبَ سَاقَيْ مَرْحَبٍ فَقَطَعَهُمَا فَقَالَ مَرْحَبٌ : أَجْهِزْ عَلَيّ يَا مُحَمّدُ فَقَالَ مُحَمّدٌ : ذُقْ الْمَوْتَ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مَحْمُودٌ وَجَاوَزَهُ وَمَرّ بِهِ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَاخْتَصَمَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَلَبِهِ فَقَالَ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا قَطَعْتُ رِجْلَيْهِ ثُمّ تَرَكْتُهُ إلّا لِيَذُوقَ الْمَوْتَ وَكُنْت قَادِرًا أَنْ أُجْهِزَ عَلَيْهِ فَقَالَ عَلِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: صَدَقَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ رِجْلَيْهِ فَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ سَيْفَهُ وَرُمْحَهُ وَمِغْفَرَهُ وَبَيْضَتَهُ وَكَانَ عِنْدَ آلِ مُحَمّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ سَيْفُهُ فِيهِ كِتَابٌ لَا يُدْرَى مَا فِيهِ حَتّى قَرَأَهُ يَهُودِيّ فَإِذَا فِيهِ

هَذَا سَيْفُ مَرْحَبْ

مَنْ يَذُقْهُ يَعْطَبْ[1] !

المطلب الثامن : تعفف الجنود :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ :

كُنَّا مُحَاصِرِي خَيْبَرَ فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ، فَنَزَوْتُ لِآخُذَهُ فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَحْيَيْتُ[2] .

فإذا كانت من سمات جند الله الصبر على المخمصة حال الحروب، حيث قلة الزاد، فإن عليهم أيضًا أن يتخلقوا بأخلاق العفة والقناعة، والتعفف عما سقط من غنيمة حتى تضع الحرب أوزارها .. إنه خطر محدق ومصيبة محققة أن ينشغل الجند بسفاسف الأمور وسقط الغنائم أثناء طاحونة الحرب ..

المطلب التاسع : الصلح مع خيبر :

لما استسلم اليهود، صالحهم النبي ، وأعطاهم الأرض ، يَعْمَلُوا فيها وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا[3] .

وفي هذه المصالحة - بهذا الشكل - رحمة وعفو كبيرين بأهل خيبر ..

فهم في الحقيقة يستحقون الإعدام ! فهم قد خانوا النبي ﷺ وغدروا وتحالفوا مع مشركي قريش سرًا، وأصبحت قيادات خيبر والفصائل اليهودية الأخرى عملاء وجواسيس لمشركي مكة وغطفان ..كل هذا إلى جانب أنهم السبب الرئيسي في تحزيب

---

١ ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣

٢ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٩٢)

٣ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٧)

جيوش الأحزب، من كل حدب وصوب..

ولما أقدمت امرأة منهم على محاولة اغتيال النبي -ﷺ- حيث أهدت لِرَسُولِ اللهَّ ﷺشَاةٌ فِيهَا سُمٌّ١.. وتُوفي اثر هذه المحاولة الفاشلة أحد الصحابة .. لم ينقلب رسول الله ﷺ على أهل خيبر ولم يعمل فيهم القتل – كما يفعل بعض الزعماء في مثل هذه المواقف – إنما أثبت الصلح وأقر العهد .

المطلب العاشر : توقير مقدسات العدو :

لما دخل المسلمون أرض خيبر، بعد النصر واستسلام اليهود، وجد الصحابة صحائف متعددة من التوراة، كانت قد وقعت فيما وقع من غنائم للمسلمين فجاء اليهود بعد ذلك يطلبونها، فأمر النبي ﷺ في سماحة – بردها إليهم، وعاملهم معاملة حسنة، ولم يقابل إساءاتهم بإساءة، ولم يصنع النبيﷺ مثلما صنع الرومان حين فتحوا أورشليم؛ حيث أحرقوا الكتب المقدسة.

المطلب الحادي عشر : العدل مع المغلوبين :

لقد حدث أن عبدالله بن رواحة – رضي الله عنه – لما بعثه رسول الله ﷺ يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة حسب عهد رسول اللهﷺ بعد فتح خيبر أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم، فقال لهم : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم!!

فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض٢ ..!

لقد كان – رضي الله عنه – قد تخرج في مدرسة الرسول ﷺ على المنهج الرباني المتفرد القائم على العدل والمساواة .

* * *

١ صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٨)

٢ ابن القيم : زاد المعاد ٢/ ١١.

obeikandl.com